إثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعـــة

الجمعة ٢٤ أغسطس ٢٠٠١

يكتبه: عبدالوهـاب مطاوع

حائط الأمنيات!

لا أدرى لماذا أكتب إليك.. ولا ماذا أريد من هذه الرسالة.. لكنى أشعر بحاجتى للتنفيس عن أفكارى، وأمل أن يسهم ذلك فى مصالحتى لنفسى فأنا زوجة تحب زوجها ويحبها زوجها، وقد تزوجت منذ أكثر من ١٢ عاما وبعد محاولات مضنية للإنجاب استمرت لمدة عشر سنوات أجريت لى خلالها عمليتين فاشلتين لطفل الأنابيب، توقفت عن الأمل.. والسعى إلى الإنجاب وفضضت الاشتباك بينى وبين الأطباء الذى استنزفنا ماديا ونفسيا طوال السنوات العشر واعتبرت علاقتى بزوجى وحبنا الرائع الذى نتبادله أغلى ما فى الحياة ووجدت فى زوجى طفلى الجميل الذى يغنينى عن كل الأطفال، واعتبرت الرضا النفسى الذى شعرت به حينذاك إشارة من السماء، لأن أكف عن الأمل اليائس فى الإنجاب وشعرت بسلام داخلى بعد أن توقفت عن ضرب رأسى فى حائط الأمنيات المستحيلة، وساعدنى على ذلك أنى حين كففت عن الأمل أثرت الا ألزم زوجى بقدرى وفضلت الابتعاد عنه لكيلا أحرمه من حريته فى الاختيار، لكنه بذل جهودا مستميتة لإرجاعى، وضعفت تجاهه فرجعت إليه على أمل أن يرضى بما اختارته لى الأقدار كما رضيت به.. وعشنا عاما سعيدا ثم جاءنى ذات يوم فلمحت فى عينيه تلك النظرة الحزينة التى اكتئب بشدة لها كلما لمحتها، وسألته عما به فروى لى أنه كان فى زيارة عائلية فى الحى الذى كنا نقطن به مع أسرتينا قبل الزواج، والتقى هناك بأحد أبناء الحى فسأله عن سبب عدم إنجابه حتى الآن وهل يرجع إليه أم إلىّ؟ فعجبت لهذا الرجل «الصبور» الذى صبر ١٢ عاما قبل أن يسأل زوجى هذا السؤال المحرج؟ وعجبت لمن يستبيحون حياة غيرهم لدرجة الرغبة فى تحديد المسئولية عن أمر شديد الخصوصية كهذا الأمر، ولاحظت أن زوجى على الرغم من حبه الكبير لى قد نفى مسئوليته عنه بشدة.. كأنما يخشى أن تلتصق به التهمة للأبد ولست أريد أن أظلمه، ولا حتى أن أظلم ذلك الإنسان الذى نكأ الجرح القديم بالسؤال المؤلم.. فالحق أن سؤاله كان فقط عاملا مساعدا على الاشتعال، أما الوقود الحقيقى فقد تمثل دائما فى خشية زوجى من ألا يرى أبواه حفيدا منه وهو ابنهما الوحيد، إذن فلقد كان له تفكيره الخاص لكنه كان له أيضا نبله الذى لم استطع معه أن أتخلى عنه بعد تمسكه بى، فلقد أقسم لى ألا يقدم على أى زواج آخر للإنجاب إلا إذا قبلت أنا به ووافقت عليه.. وأعطيته الإذن به.. وإننى لو لم أفعل فلن يقدم عليه مهما تكن حاجته إليه.. فهل كنت أستطيع بعد ذلك أن أحرمه من أمل الإنجاب وأن أستغل نبله لأجبره على الرضا بأقدارى الخاصة؟

لقد تناقشنا فى الأمر طويلا ومرارا.. ووجدتنى ذات يوم أذهب إلى والدته وأطلب منها باكية أن تزوجه وأن تساعده الأسرة فى نفقات الزواج بعد أن أرهقته محاولات الإنجاب السابقة الفاشلة.. وبكت والدته التى تعتبرنى كابنتها وحاولت إثنائى عن ذلك، لكنى كنت قد حزمت أمرى وشعرت بأن حرمانى لزوجى من الإنجاب من زوجة أخرى سينعكس على حبه لى وقد يحرمنى منه وهو معى، فإذا كنت قد رضيت بحرمانى من الأمومة فلأنها إرادة الله والحمد لله من قبل ومن بعد.. فلماذا أرضى لنفسى أيضا بحرمانى من حب زوجى الذى عوضنى به ربى عما حرمت منه؟

وبدأ مشروع الزواج واتفقت مع زوجى على ألا يخفى عنى شيئا من التفاصيل.. ابتداء من مشاورات اختيار العروس إلى كل شىء.. وقال لى زوجى إنه سيفعل ذلك وسيحكى لى كل التفاصيل لأنه لا يتزوج وحده وإنما نتزوج نحن الاثنان معا هذا الزواج الجديد وبدأت أسأله ويجيبنى.. ورغم هدونى فى معظم الأحيان فكثيرا ما كنت أحترق لكلمة أو عبارة أو إشارة صدرت عنه.. أو للحظة استشعرت فيها أنه قد صمت ولا يريد الكلام وكثيرا ما انفجرت وقذفت بكل الأشياء الصغيرة فى البيت وصرخت فيه أنه قد كذب علىّ حين قال لى إننا سنتزوج معا وها هو بدلا من ذلك يتزوج وحده! ورغم قسوة تلك الفترة إلا أنها كانت فى النهاية مرحلة الكلام وما أسهل الكلام بالرغم من كل شىء.. وحين جاءت مرحلة الفعل أدركت كم هو موجع ومؤلم.. لكنى اجتزت مرحلة الخطبة فى النهاية واقترب موعد الزواج فلم يستطع أن يبوح به لى.. وصرخت فيه طالبة منه ألا تكون له صورة زفاف لكيلا تكون له سوى صورتى معه وظل هو طوال الليل يهدئ من روعى وبريت على بحنان حتى أشفقت عليه.

وجاء الغد وخرج مودعا دون أن يستطيع النظر فى عينىّ أو إبلاغى أن الليلة ستقتسمه إنسانة أخرى واقترب موعد عودته إلى البيت الذى أستعد له ككل يوم بإعداد العشاء فأرسل إلىّ بصديق لم يستطع هو الآخر أن يصارحنى فاتصل بأختى الوحيدة التى تعرف بالأمر واتصلت هى بى تحاول أن تخبرنى وهى تضاحكنى أن النوم بدون عشاء وبدون زوج أفضل كثيرا هذه الأيام! وأخيرا فهمت ما تريد منى فهمه وطمأنتها على نفسى وأغلقت السماعة ووجدتنى أدخل فى حالة من السكون والهدوء بالرغم مما أشعر به من الضعف والقهر.. وأعطتنى قشرة الهدوء هذه قوة هائلة لمواجهة الأهل الذين فوجئوا بزواج زوج ابنتهم الذى يحبونه كثيرا فثار من ثار واستنكر من استنكر وحاولوا الوقوف بجانبى، لكنى كنت قد أعلنت أنى مع زوجى ولن أتركه وأننى التى زوجته من أخرى.. وبعد الثورة والاستنكار استتب الأمر وهدأ.. وكلمنى زوجى ثانى أيام زواجه ورغم غضبى منه.. فإنى لم أستطع تحمل حزنه الذى أتانى عبر الهاتف وأحسست بأنه مذبوح مثلى بكلام الناس وضغوطهم ولم يكن زواجه إلا إرضاء لتلك الضغوط حتى وإن بدا أنه هو المشتاق لإنجاب طفل، ذلك أن هذا الاشتياق نفسه قد جاء نتيجة دفعهم له وقسوتهم فى إثارة الموضوع.. ورجع إلى زوجى بعد سبعة أيام زواج لنبدأ معا رحلة «الزواج الثلاثى» الجديدة.. وأصبح التصاقنا أكثر عن ذى قبل. واشتياقنا أكثر صدقا لكن البيت أصبح موحشا بدونه فى تلك الأيام البغيضة التى لا يكون معى فيها وحملت زوجته وقاربت على الوضع فهل تصدق أنى لم أر أية فرحة فى عينيه حتى الآن؟.. وهل تصدق أنه عرض علىّ أن نقوم بعمل تجربة جديدة لطفل الأنابيب لأنه قد شعر بأنه مازال محروما من طفل منى؟.. لقد رفضت ذلك لأنه قد تزوج بالفعل للإنجاب فإذا نجح فالأمر يكون منتهيا ولن يفلح ذلك فى أن يعيد زواجنا ثنائيا مرة أخرى فضلا عن ضياع مواردنا المالية فى محاولة الانجاب سواء بالأنابيب أو بالزواج من أخرى..

والآن.. لماذا أكتب إليك يا سيدى.. إننى بالفعل أحتاج إليك لكى تخرجنى مما أنا فيه فمنذ زواجه وأنا أشعر بهذه الحالة الكئيبة تهيمن على نفسى كسحابة سوداء تملأنى وتنتاب عقلى حالة من الركود.. وتتوقف الكلمات كثيرا حتى أستطيع العثور عليها.. ولم تعد هناك أفكار أكتبها على الورق كما كنت أفعل من قبل وتوقفت عن الحماس لأى شىء ولأى فكرة أو موضوع.. وأشعر بأن بى حالة من التمرد على نفسى وعلى عقلى الذى فرض علىّ هذا الزواج الثلاثى وأرضانى بزوجى لنصف الوقت وإنى أصرح لنفسى بأننى لست ضعيفة، ولكنى أحبه ولا أستطيع أن أتركه فهو زوجى وحبيبى وعمرى وطفلى المدلل الذى لم أستطع أن أرفض له طلبا يطلبه.. أو أملا يحلم به.. فماذا أفعل لكى أخرج من حالة الكآبة هذه؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

من الطبيعى يا سيدتى ألا تكونى فى أحسن أحوالك حين يتزوج زوجك من أخرى حتى ولو كنت قد قبلت بهذا الزواج وأعطيت الإشارة به. فساعة إنزال العلم نبكى دائما بالرغم من علمنا مقدما بموعدها وليس من الطبيعة البشرية أن «تبتهج» زوجة محبة بزواج زوجها المحب حتى ولو كانت قد قبلت به تسليما بحقه فى الإنجاب أو حرصا عليه وأملا فيه.. ولا عجب فى ذلك فالشاعر العربى يقول:

ومكلف الأشياء ضد طباعها

متطلب فى الماء جذوة نار

وأبلغ دليل على ذلك هو ما كنت تعانينه وأنت تسمعين من زوجك تفاصيل خطوات مشروع زواجه.. بالرغم من أنك أنت التى كنت تطلبين معرفتها وتلحين فى السؤال عنها بزعم أن زواجه سيكون مشتركا بينكما! فلقد جبلنا على حب الانفراد بمن نحب وكراهية أن يشاركنا فيه أحد. وبعض الأمور يؤذى مشاعرنا العلم بتفاصيلها الدقيقة.. ومن الرفق بالنفس أن نتغافل عنها أو نتجاهلها لكيلا نتعذب بها. وفى التنزيل الحكيم «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» لهذا فإن فكرة «الزواج الثلاثى» هذه التى ترغبين معها فى معرفة كل شىء عن حياة زوجك مع الأخرى ليست مما يساعدك على اجتياز الفترة الضرورية من المعاناة والغيرة الشخصية بعد زواج زوجك ولا أيضا مما يساعدك على تقبل الأمر الواقع والتكيف معه مادمت راغبة فعلا فى استمرار الحياة مع زوجك.. والاكتفاء بما يتاح لك من أسباب السعادة معه.

ونحن نعرف جيدا أنه ليست هناك طريقة لتعامل الإنسان مع مشكلاته سوى طريقتين لا ثالثة لهما، الأولى أن يقبل بالواقع ويرضى به، والثانية أن يغيره ويتحمل تبعات تغييره راضيا.

أما العذاب الحقيقى فهو رفض الأمر الواقع.. والنكوص فى الوقت نفسه عن محاولة تغييره.

ولقد اخترت التمسك بزوجك.. وليس من حق أحد أن يلومك على هذا الاختيار، كما لم يكن من حق أحد أيضا أن يلومك لو كنت قد آثرت الانفصال عنه عند زواجه من الأخرى، فلكل إنسان أن يختار حياته وما يحقق له السعادة المشروعة حتى ولو كانت منقوصة، وفقا لرؤيته الشخصية وأولوياته الخاصة. لكنه يخفف دائما من وطأة تبعات أى اختيار أن نشعر بأن أحدا لم يقهرنا عليه وأن ندرك أن السعادة أمر شخصى للغاية ولنا أن نطلبها بأى طريق مشروع حتى ولو بدت فى أعين الآخرين تعاسة أو سعادة منقوصة مادامت لا تأتينا خصما من حقوق الآخرين ولا عدوانا عليهم.

وأحد عناصر ما يسميه بعض علماء النفس المحدثين بفن نسيان الشقاء أن نؤمن بأننا نستطيع أن نعادل جوانب الشقاء فى حياتنا بجوانب السعادة والابتهاج فيها فتصبح حياتنا مزيجا مستساغا وأن نتلمس أسباب العزاء فى القدر المتاح لنا من السعادة حتى ولو كان أقل من حلم الإنسان المستحيل بسعادة خالية من كل الشوائب، وهو حلم مستحيل بالفعل لأن الجميع يشربون غالبا على القذى وإن اختلفت مشاربهم، ولو أبى إنسان أن يشرب إلا ماء السعادة المصفى من كل كدر لمات عطشا فى النهاية بسبب انعدام المورد وأبسط مثال على ذلك من حياتك الشخصية هو «الأخرى» التى قبلت بنصف زوج يحب زوجته الأولى ولا يستطيع الاستغناء عنها ويحلم بالإنجاب منها بالرغم من الصعوبات السابقة، فهل صفت لها مشاربها من كل كدر؟ بل وهل صفت أيضا مشارب زوجك نفسه الذى يتمزق عاطفيا بين زوجة يحبها ويحرص عليها وأخرى يرغب فى الإنجاب منها، وأبوين كابدا حلمهما الحسير فى رؤية حفيد منه على مر السنين.. إن الجميع ينهلون من المورد نفسه.. وإن اختلفت مشاربهم، فتقبلى حياتك مادمت قد اخترتها بإرادتك أو بعاطفتك.. وتلمسى السعادة فى الجوانب الأخرى المضيئة من حياتك كحبك لزوجك وحبه لك وامتزاجكما معا.. وتقدير كل منكما لتضحية الآخر من أجله ولعطائه وأعينى نفسك على تقبل حياتك بتذكيرها كل لحظة أنها اختيارك الحر والعاطفى.. وبالكف عن تجربة «الزواج الثلاثى» هذه.. والتوقف عن التطلع إلى معرفة كل شىء عن الأخرى وتهيئة النفس لما سوف يحدث حين تنجب وليدا لها.. والنظر إلى الأمور حينذاك من زاوية سعادة الزوج المحبوب بتحقيق حلمه الكبير وليس من الزاوية الأخرى المثيرة للغيرة والحسرة والأشجان القديمة.

أو فلتقدمى إذا عجزت عن التواؤم مع كل ذلك على الاختيار الآخر وتحملى تبعاته بلا لوم للنفس ولا لأحد.